

حوار حول العقل

:شخصيات المحاوره

- صونيا: صاحبه المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن - بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها
- سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه -
- حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبب -
- ماري: أستاذة جامعية -
- خديجة: صاحبة محل راق لبيع الزهور -
- جوزيف: رجل أعمال -

صونيا: يوم رأى هذا المنتدى النور وبدأت براعته تتفتح ويفوح شذا أزهيره، قال لي والذي ليس أصعب من جمع الناس على الحق والخير والجمال وليس أسهل من تفريقهم على الشرّ والقبح والباطل. فالإجماع على الحق عملٌ غائي هادف يحتاج الى محور تدور حوله الأفكار بانتظام وهذا ما يسمى في علم المنطق علاقة المعلومات بعلمها. أما التفريق على الباطل فهو عملٌ عبثي لا غاية له ولا هدف إلا تهديم ما بني وتخريب ما شيّد دون التفكير باستبدال بناء ببناء أو فكرة بفكرة

حسام: فائدة والدك الكبرى ليست فقط في أقواله ولكن في أفعاله. يكفي أنّ جيناته تعشش في أجمل كيان إنساني جسداً وروحاً وعقلاً. نحن نشكر المرحوم والدك لأنه وزوجته الرائعة قدما الجمال جسداً بكيان جميل والكمال جسداً بكيان كامل

ماري: أما أنّ صونيا جميلة فهذا يدخل في علم البديهيات التي بواسطتها تبرهن الأشياء وهي ليست بحاجة الى برهان. وأما الكمال فأنا أعتقد يا صديقنا حسام بأنك تفهمه من موقع عجزك عن فهمه، فليبقَ خيالك في ملعب الجمال ولا يشرئب عنقك الى ملعب الكمال فهذا ليس من إختصاص الشعراء رغم أنّ الجمال والكمال وجهان لحقيقة واحدة وفهمها بحاجة الى شعراء فلاسفة كأفلاطون وليس الى شعراء يقتفون آثار تنورة يتلاعب بها الهواء أو قميص إنفلتت أزواره من عراها فكشف الكثير الكثير من كنوز الملك سليمان

خديجة: علمتني مهنتي أنّ كل الأعمال المتناسقة هي أعمالٌ جميلة. والتناسق ليس أكثر من وضع الأشياء في مكانها المناسب لها

جوزيف: ولكن من هو المرجع الذي يحدد موقع المكان المناسب؟ هل هو العقل أم الهوى، أم العاطفة أم المنفعة، أم أنواق الجماهير التي غالباً ما يكون عقلها في أذنيها وليس في دماغها

حسام: نحن نعيش اليوم في عالم التسويق، فكل شيء ينجح منتجه في تسويقه يعتبر مناسباً وبالتالي متناسقاً مع ذوق المستهلكين. فهل يحق لنا عندئذ أن نعتبره شيئاً جميلاً؟

سليمان: لا أستطيع أن أتصور الجمال إلا في إطار الخير. فلو كانت صونيا مثلاً تعتدي على عقلها بتعاطي المخدرات، وتعتدي على جسدها بالإفراط في شرب الكحول وأكل الدهون، وتعتدي على المجتمع بترويج الأكاذيب والأفكار الخاطئة والعادات المخالفة لقوانين الطبيعة، هل يمكن إعتبار صونيا عندئذ جميلة فقط لأن أعضاء جسدها متناسقة وزينتها وثيابها متناسقين مع تقاطيع جسدها؟

صونيا: كلما ألتقي بامرأة جميلة أحس بالفرح يغمرني من الجهات الأربع، أحس بأنّ أمواجاً من المشاعر الإيجابية تجتاحني. فهذه المرأة الجميلة مهيأة لتكون ينبوع وحي وإبداع لكثير من الشعراء والرسامين والنحاتين والموسيقيين وحتى للفلاسفة. وهي حتماً يجب ألا تكون مادة استهلاكية رخيصة يفعل صاحبها ما يفعله الطفل بحبة البرتقال حيث يثقبها ليمتص عصيرها حتى تجف ثم يرميها في سلة المهملات

حسام: هنا علينا أن نسأل أنفسنا السؤال المحيرّ بماذا نتذوق الجمال؟ هل نتذوقه بأهوائنا ورغباتنا، أم نتذوقه بانجذابنا الشهواني اليه، أم نتذوقه بعواطفنا حيث نشعر تلقائياً بأننا والآناس الجميلين أقارب أو أصدقاء تجمعنا قواسم مشتركة، أم بتذوق الجمال بعقولنا. فالعقل وحده القادر على تعريف الجمال والتعرف اليه والانجذاب نحوه وحتى الاتحاد به.

صونيا: هل نسيتم أننا مجتمعون هذه الليلة لنتحاور في موضوع العقل؟ ما هي ماهياته وما هو تعريفه، ما هي حدوده، هل هو من أصل روحاني أم من أصل مادي، هل هو منظم هذا الوجود أم هو مبدعه أم هو أحد منتجاته

ماري: أفهم العقل أنه فعل الدماغ وأفهم أنّ الدماغ مادة وأفهم أنّ المادة عارضة، وهنا أسأل نفسي ما هي الجواهر إذن الموجودة منذ الأزل والمستمر وجودها حتى الأبد.

سليمان: أراك تتطلقين من مقولة مادية ثم تستطرددين الى مقولة عقلانية ثم تتذبذبين بين المقولتين فتصبحين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء. من قال أن العقل هو فعل الدماغ؟ الدماغ يا سيدتي ليس إلا آلة العقل تماماً كما أن الحرف هو آلة المعنى. وكما أننا لا نستطيع تصور معنى بلا حرف لا نستطيع تصور عقل بلا دماغ.

حسام: لقد أدخلتمونا منذ بداية الحوار في لجة الدوامة. أنا شخصياً أعرف العقل تعريفاً مبسطاً يستسيغه الفيلسوف والإنسان العادي على حدّ سواء فأقول أن العقل هو معرفة مقادير الأشياء والوقوف عند هذه المقادير.

جوزيف: هذا كلامٌ منطقي. فأنا كمتعهد ورش بناء رجلٌ ناجحٌ في عملي لأنني أحاول أن أعرف مقادير الأشياء التي عليّ إنجازها ثم أضع مقادير الريح المطلوب وعلى هذا الأساس أقدم مناقصاتي وأنفذ مشاريعي.

خديجة: معرفة المقادير تدخل في إنجاح طبخة نطبخها أو كوكتيل نصنعه أو سجادة نحيكها ولكني أظن العقل أعمق من ذلك بكثير.

سليمان: لماذا لا نقول أنّ العقل هو معرفة حدود الأشياء والوقوف عند هذه الحدود. فكلمة حدود أدق من كلمة مقادير لأنها تحدد ماهية الشيء الذي نعقله لا كميته. فأنا إذا أردت مثلاً أن أعقل معنى الإنسان، قلت أنه حيوان عاقل حرٌّ مسؤول. لقد حددته أولاً بحدّ الحيوان لأنه يشارك الحيوان بامتلاك قوة الحياة. ثم إستخصّيته بحدّ العقل لأنه الحيوان الوحيد الذي يملك الوعي فهو يعقل نفسه ويعقل ما يحيط به، ويعقل ما يأتيه من خارج ذاته، ثم حددناه بأنه حرٌّ لأنه الحيوان الوحيد القادر على إختيار أفعاله دون إكراه أو إجبار، فهو لا تسيره قوانين جبرية تكرر نفسها كما سائر الحيوانات. وبما أنه حرٌّ في إختياراته فهو الكائن الوحيد المبدع الخلاق الأخلاقي المسؤول عن أعماله التي اختارها بملاء إرادته.

خديجة: لماذا لا نستعمل في تعريف العقل عبارات وصفية فنقول مثلاً أنّ العاقل من له رقيب على جميع شهواته لكي يوقف هذه الشهوات عند الحدود التي رسمتها لها الطبيعة.

ماري: أو لماذا لا نقول أنّ العاقل هو من يعقل نفسه عن جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

حسام: ولكننا بحاجة الى تحديد الفواحش، فالبعض مثلاً يعتبر أنّ كشف المرأة عن رأسها لإظهار شعرها هو من الفواحش، والبعض يعتبر أنّ تعري المرأة كلياً على شاطئ البحر ليس من الفواحش لأنّ الجسد الإنساني بحاجة الى أشعة الشمس وخصوصاً إبان مشرقها أو مغربها ليتزود بالأوميغا فيزداد صحة وعافية، والصحة والعافية خير وليست شراً كما يعرف الجميع.

صونيا: لا زلت أحفظ ما قاله المتنبي عن العقل منذ أيام الثانوية

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الإنسان

فبالعقل اكتسب الإنسان هويته الإنسانية وأصبح سيّد هذا الوجود وجميع الكائنات غير العاقلة من حيوان ونبات وجماد في خدمته مسخراً لحاجته ورفاهيته ومساعداً إياه على التطور والإرتقاء بغية الوصول الى كمال نوعه

جوزيف: إني أعتقد أنّ العقل هو الدليل الأوحد على الخير والناهي الأنصح عن الشرّ والهادي الأوعى الواقف على مفترق الخطأ والصواب. فطوبى لمن اهتدى بهداه ونال رضاه. أنا شخصياً أعتبر نفسي عقلانياً خصوصاً وأنّ المواصفات اللائقة بكرامة الإنسان موجودة في شقق عماراتي

ماري: إني أشك في صحة هذا الإدعاء لأنّ أكثر عمارات بلادي لا تحترم راحة الإنسان ونموه بشكل سليم. هل يوجد مثلاً أمام عماراتك حدائق تترتاح اليها النفس ويلعب فيها الأطفال! هل هناك مركز رياضي في قلب كل عمارة؟ هل هناك مساحات خضراء يغرّد فيها طائر أو يرف جناح فراشة. هل الخير أن نفتلح الإنسان من أحضان الطبيعة لنسجنه في غابات من الإسمنت والحديد بحجة أن لا فرص عمل متوافرة في الأرياف ولا خدمات عامة. فإذا أردت أن تقرن الخير بالجمال

والإثنين بالعقل كما يقول سليمان فمدننا هي مدن القبح والشرّ والباطل. إنها مدن الملح كما سماها أحد الكتاب الروائيين.

حسام: دعوني أعود الى ما قالته ماري بأن العقل هو من فعل الدماغ والدماغ مادة والمادة تتفاعل بما هو خارج عنها وأعلى منها، وإذا ما فعلت بحكم تفاعل طبائعها فهي لا تعي أفعالها. ومن لا يعي أفعاله تكون حركته جبرية وليست وليدة خيار حرّ عاقل مسؤول.

خديجة: أنا شخصياً لم أع من كلامك شيئاً فهلا فسرت لنا وأعطيت الأمثلة

حسام: كلنا يعرف أنّ طبائع المادة هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. وكلنا يعرف أن الماء مثلاً ليس إلا وليد تفاعل البرودة مع الرطوبة وأنّ الهواء ليس إلا وليد تفاعل البرودة مع اليبوسة والنار نتاج تفاعل الحرارة مع اليبوسة، فهل تعي هذه الطبائع وهي تتفاعل مع بعضها وتنتج ما تنتجه من العناصر، حتماً هي لا تعي ذلك ولا تعي أنّ هناك قوانين فوق طبائع المادة تحدد مسيرة تفاعلاتها وتنظم هذه التفاعلات من أجل غاية معينة. وهذه القوانين هي إبنة عقل كلي ينظم بواسطتها كل عناصر ومظاهر هذا الوجود ويجعل كل سبب يتبع سببه فلا شيء وليد المصادفة ولا شيء يحصل عبثاً

سليمان: العقل هو نظامٌ وتنظيم، هو قوانين منغرزة في جواهر الموجودات، هذه القوانين تمارس عملها في الموجودات غير العاقلة جبراً وفي الموجود العاقل الإنسان إختياراً. وعلى هذا الأساس كلما ازداد الإنسان تنظيمياً لجسده وأحاسيسه وأفكاره وخياله كلما ازداد عقلاً، وما ينطبق على الإنسان ينطبق على المجتمعات. فالمجتمعات المنظمة التي توازن بين نموها الإقتصادي ونموها السكاني، وبين إنتاجها وإستهلاكها، وبين طبقاتها وإثنياتها ودياناتها ومؤسساتها المدنية هي مجتمعات عقلانية تكافأ على عقلانيتها بالسعادة والطمأنينة والأمن والسلام والإزدهار.

صونيا: كلامك يعني أنّ الإنسان كلما ازداد تعقلاً وتنظيمياً إزداد طمأنينة وسعادة وإزدهاراً وكلما غرق في الفوضى والجهل كلما ازداد تعاسة وقلقاً وتخلفاً

ماري: أكثر الناس اليوم يعتبرون السعادة زيادة في القدرة على الإستهلاك. فسعادتهم الغريزية والعاطفية مثلاً هي في كمية الأشخاص الذين يمارسون معهم الجنس وكمية الحفلات التي يحضرها الواحد منهم وكمية المأكولات والمشروبات التي يتناولها وكمية الثياب والسيارات التي يمتلكها. إنه عصر النهم والجشع الذي يفتح شذقيه لبيتلغ الكون بما فيه من بشر وشجر وحجر

حسام: عندما خلق الله الإنسان من صلصال قدّر عليه أن يكون أجوف يرشح دائماً بما فيه فيشعر بالخواء المخيف فيركض لاهثاً وراء شهواته ورغباته ظناً منه أنه سيملاً بهما ذلك الخواء ولكن عبثاً يفعل. يمتلئ للحظات ثم يعود الى سابق خوائه ولهذا أنا أقول لكم لا شيء يملأ خواء الإنسان المرعب إلا الشعر، الكلمة التي تفتح ثغرة في جدار التصنم وتنداح إيقاعاً بين الأضلع يملأ الأضلع حينئذ دافئاً، ثم تضيء مع الخيال بألوان قوس قزح فتكحل الأهداب بالفرح والشفاه بالإبتسامات الملونة. بالشعر فقط ولا شيء غير الشعر نمتلئ فنسعد ونطمئن ونصبح خلاقين مبدعين.

خديجة: نحن نهرب من تناقضات الواقع المعاش وقسوته المحسوسة الى عالم خيالي نتصوره متناسقاً في مظاهره متناغماً في أهدافه متوازناً في جزئياته فنفرح ونطمئن. إذا كان الشعر هو هذا الهروب من تناقضات الواقع الى تناغمات الخيال فأنا أقف الى جانب حسام اليد في اليد والساق على الساق كما كان يقول أحمد فارس الشدياق

صونيا: ولماذا نهرب من عالم الواقع الموجود الى عالم الوهم المفقود ونحن أبناء الوجود. ما هي ذرائعنا في ذلك. نقول لأنفسنا عالم الواقع مليء بالتناقضات والفوضى والجهل والظلم والفقر والمرض فلنهرب إذن الى عالم نتخيله متناسقاً متوازناً يفيض عدلاً ومساواة وحرية وبحبوحة وعافية وحرية في التفكير والتعبير والمعتقد والفرص المفتوحة على التطور والإرتقاء في أحضان عقل مدبر يعرف حدود الأشياء ومقاديرها وغاياتها وكمالاتها

لماذا لا نرى الأمور ببصائرنا لا بأبصارنا فنقول لا يمكن الهروب من الواقع الموجود لأن محاولة الهرب تخلق آلاماً تفوق آلام الواقع المتناقض. إنها آلام

الإزدواجية في الشخصية حيث يغدو الإنسان جسده وحواسه في مكان وخياله وعقله في مكان آخر وهو متمزق بين المكانين. والأجدى للإنسان العاقل أن يجابه الواقع بعقله وإرادته وبالتضامن الإجتماعي والنضال الجمعي لإستبدال حالة الجهل القائم بوعي مقيم والظلم بعدالة والفر برفاهية والمرض بصحة

سليمان: ما تقولينه هي وظيفة العقل بالذات. النضال من أجل ولادة إنسان جديد متوازن بغيرائزه وعواطفه وأفكاره، ومجتمع جديد متوازن بطبقاته وإثنياته ودياناته ومؤسساته وهذا برأيي ما قصده الفيلسوف اليوناني أرسطو عندما عرف الإنسان بأنه حيوان عاقل إجتماعي سياسي بالفطرة. فنحن نعرف أن الإنسان كفرد إكتسب هويته الإنسانية عندما قال لنفسه أنا أفكر بملء حريتي وهدفي من تفكيري معرفة الحقيقة لأن إنسانيتي تتجوهر بالحقيقة بل تتأله بالحقيقة، وبعد ذلك أجسد أفكاره. أعمالاً أنا مسؤولٌ عن نتائجها سلباً أو إيجاباً

ونحن نعرف أيضاً أن الإنسان كحيوان إجتماعي سياسي لا يستطيع أن يكون سعيداً إلا في مجتمع سعيد ولا قوياً إلا في مجتمع قوي ولا صحيح الجسم والنفس إلا في مجتمع صحيح غير ملوَّث بالتباغض والتناذب والتشردم، ولذلك عليه أن يناضل مع غيره لبناء ذلك المجتمع السعيد القوي الصحيح العادل. وأنا برأيي المتواضع أظن أن مؤسسات المجتمع المدني هي المجال الأفضل لمثل هذا النضال

جوزيف: تنادون بالعقل الذي يعقل فوضى الواقع وظلمه وجهله وتصنمه ثم تهربون من حيث لا تشعرون عبر الخيال الى عالم ليس موجوداً إلا في أوهامكم. أين هي مؤسسات المجتمع المدني يا صديقنا سليمان، بل لنسأل سؤالاً أهم من هذا هل هذا التراكم البشري في بلادنا يمكن أن يطلق عليه من الناحية العلمية لقب مجتمع؟ ألم تقل لنا أنت في حوار سابق أن المجتمع يتألف من أفراد يتفاعلون مع بعضهم عضوياً تماماً كما تتفاعل خلايا الجسد، ولذلك يوجد للمجتمع شخصية واحدة موحدة أو هوية أحدية رغم أن تعداد أفراده قد يكون بعشرات الملايين تماماً كما الجسد. كيان أحادي له بصمته الخاصة به رغم تعدد خلاياه وأعضائه

صونيا: كلامٌ دقيق يجعلنا حقاً نسأل هل نحن مجتمع أم تراكم لأعداد أفراد لا يخلق تراكمهم شخصية معنوية لها بصمتها الحضارية الخاصة بها إسمها مجتمع

ماري: لا تتطرفوا الى هذا الحدّ. هل يوجد لبناني واحد مهما اختلف مع الآخرين في معتقده وميوله ووضع المعيشي والمهني والطبقي لا يحب أن يسمع فيروز كل صباح؟

وهنا أسأل نفسي... عندما يوجد أناس ملهمون ومخلصون ومحبون لمجتمعاتهم مثل الأخوين رحباني ألا يتولد من أعمالهم وأقوالهم ذوق عام له بصمته الخاصة به التي تحدد هويته؟

حسام: ألم يرسم أمرؤ القيس الشاعر الجاهلي في معلقته مواصفات آلهة الحب والجمال عند العرب التي ما زال كل شعراء الغزل يرددونها حتى يومنا هذا. وكذلك فعل المتنبي في صورة القائد البطل، العروبة برأيي مناخ نفسي وفكري وحضاري خلقه الشعراء والأدباء والفنانون وليس رجال السياسة وأصحاب الدول والدويلات الذين لم يتقنوا إلا إستباحة كرامات الناس ومصادرة عقولهم وحررياتهم وتحويلهم الى غلمان وجوار.

خديجة: ألهذا السبب يا ترى يخاف القوامون على السياسة والدين عندنا من الكلمة إذا طرقت باب الحقيقة بأصابع عارية إباحية ولا يخافون من آلاف أفلام التعري والإباحة التي تعرض على قنواتنا ليل نهار؟ ألهذا السبب تعففت الكلمات في بلادنا حتى حدود الزهد والتصوف وتعهرت الأفعال حتى حدود المجون بل الشذوذ

حسام: لهفي على دعد وما خلقت إلا لطول تلّهي على دعد

لا يوجد في الشرق حقائق يبني عليها مجتمع يفرز مؤسسة عقلانية إسمها الدولة. في الشرق لا يوجد إلا العنف والجنس والزوايا والتكايا، لا يوجد إلا المرأة الجارية والرجل الجلاد وليس كل ذكر رجل فأكثر ذكورنا هم بمنزلة الجوّاري لأنهم في مواقع رداات الفعل وليسوا في مواقع الفعل

صونياً: دعونا نعود الى موضوعنا الأساسي بطرح سؤال طالما حيرني ولا يزال، هل العقل خالق أم العقل منظم أم هو الوكيل الشرعي من قبل الخالق على نظام أوجده الخالق وما على العقل إلا أن يرعاه ويحرسه فيكافئ من يطيعه ويعاقب من يخالفه

سليمان: عندما قلنا أنّ العقل هو معرفة حدود الأشياء والوقوف عند هذه الحدود. كنا ضمناً نعترف بأنّ العقل وكيل الخالق وليس الخالق وذلك لسبب بسيط أنّ الخالق هو الوجود الذي تنبثق عنه الموجودات بحدود ماهياتها وهوياتها وقوانين صيرورتها ولكن الخالق يبقى وجوداً غير محدود لا يحيط به العقل لأنّ العقل لا يحيط إلا بالموجودات المحددة. وهنا نستطيع أن نقول أنّ جوهر العقل يحيط بكل موجودات هذا الوجود ولكنه لا يستطيع أن يحيط بجوهر الوجود الذي هو الله. وبهذا المعنى يكون الله وجوداً منزهاً عن إدراك العقل بكلياته ولكن العقل يدركه بقوانينه البديهية المنغرزة في جوهره، ويدركه بالفيض الذي يفيض منه عليه.

جوزيف: أظنك لم تتصف العقل بهذا الكلام الإنصاف الذي يستحق

حسام: أنا أقول أنّ أعلى ملكة في العقل هي الخيال، وبهذا الخيال نتصور فردوسنا المفقود حيث الجمال مطهراً شفافاً لم تلوثه أنانية تملك ولا قوة إغتصاب عاتية. وحيث الخير ثمرة لهذا الجمال الطاهر، والعطاء سعادة والتفاعل لذة والحوار الفة وصدقة والعدالة إستقرار كل موجود في المكان المناسب لطبيعته والتلذذ بعمله الذي يؤديه متناغماً مع أعمال الآخرين وأحلامهم وأمانيتهم. إنه حب الإنسان لحقيقة إنسانيته الذي يجعله يحب جميع الموجودات ويحب خالق هذه الموجودات، فالكل ظاهر على مرآة الجزء والجزء يغفو مرتاحاً في ضمير الكل

سليمان: إذا كان الخالق تعالى وجوداً منزهاً عن أن يحيط به العقل فهذا الخالق أبداع جميع الموجودات بناءً على قوانين سببية أودعت في جوهر العقل فغدا العقل هو وسيلة التواصل بين المخلوقات وخالقها. وبهذا يكون تصور العقل على الشكل التالي فهو بقسمه العلوي متصل بالله يتقبل فيضه الحي الواعي، وبقسمه السفلي متصل بجميع الموجودات يضبط نظامها بناءً على القوانين السببية التي أودعت في جوهره

والتي فاضت عليه من الخالق. وعلى هذا الأساس تكون سعادة الموجودات في مدى انضباطها تحت نظام العقل وتعاستها في مدى مخالفتها لتلك الأنظمة، وبما أنّ الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يختار المؤالفة أو المخالفة إختياراً حراً كان الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يمكن وصفه بالسعادة أو التعاسة، بالعدالة أو بالظلم، بالمعرفة أو بالجهل.

ماري: ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أنّ الإنسان ليس عقلاً صرفاً، فهناك الشهوات التي تآكل ولا تشبع وتشرب ولا ترتوي ودائماً تصرخ تطلب المزيد، وهناك عواطف شبه غريزية كعاطفة التملك فهي تريد أن تمتلك لنفسها أجمل الأشياء وأنفسها، وهذه العاطفة الغرائزية كثيراً ما تتضخم بطريقة مرضية فيغدو التملك إحتكاراً جشعاً لا يعرف ضوابط أو حدود. كلكم قرأ عن الملوك الشرقيين الذين تملكوا مئات الجواري وظلوا يطلبون المزيد. وملكوا قناطر الذهب وآلاف العقارات وظلوا يطلبون المزيد. وازداد جشعهم حتى أوصوا بأن تدفن جواريتهم معهم عندما يموتون وكذلك قناطر ذهبهم دون أن يخطر ببالهم إنسانية أولئك الجواري وحق المجتمع في ذلك الذهب لأنه ثروة إجتماعية وليس ثروة فردية.

حسام: وأين ذهبت بعاطفة التسلط التي جعلت أصحابها يطلبون الرئاسة ولو على أهرامات من الجماجم. فهم لا يتصورون الآخرين إلا عبيداً وجدوا لخدمتهم وأنّ مصادرة عقولهم وحررياتهم وإستباحة كراماتهم حق شرعيّ لهم. يتصورون أنفسهم (مختارين والآخرين مجرد (غويم

خديجة: أفهم من خلال كلامكم أنكم تميزون بين العقل والعلم فهل هناك من فوارق؟

سليمان: العلم الذي يبغي الحقيقة ويجسدها نكتسبه بالعقل المكتسب ولكن يوجد عقل إسمه العقل الغريزي وهو الجوهر الذي انبثق من الخالق تعالى وقد انطبعت على مرآته كل حقائق الوجود البديهية وأنّ اكتشاف هذه الحقائق يحتاج الى رحلة داخلية وليس الى رحلة خارجية. وهذا ما نحصل عليه بالمجاهدة في تطهير النفس من الأهواء والشهوات المخالفة لقوانين الطبيعة، عندها تتصلق مرآة هذا العقل الغريزي وتشع الحقائق البديهية المنطبعة في مرآته. وعندها أيضاً نكتشف أنه لا فرق بين

الحقائق التي اكتسبناها بالتعلم والملاحظة والتجربة وبين هذه الحقائق التي شعت من مرآة العقل الغريزي

صونيا: سمعت مرة لمحاضر هندي ما معناه أنّ العقل عندما يصقله صاحبه صقلاً كاملاً فيغدو نوراً لا يخالطه أيّ كدر يفارق الدماغ وهو فيه ويتجاوزه وهو يعمل من خلاله فيتحد بالله لعدة لحظات ثم يرتد الى صلصال آدميته من جديد ولكنه في هذه اللحظات يحيط بالزمان والمكان فيطلع على المستقبل والماضي تماماً كما يطلع على الحاضر لأن الزمان يغدو في قبضته. كذلك يطلع العقل في هذه اللحظات على معرفة الكليات المجردة وعندما يرتد الى صلصال آدميته من جديد يسحب معرفته بالكليات على الجزئيات المحسوسة في جدل هابط تماماً كما نفعل نحن في سحب معرفتنا بالجزئيات باتجاه الكليات في جدل صاعد

ماري: أنا لا أفهم كيف يفارق العقل الدماغ وهو يعمل من خلاله، كيف يفارقه وهو فيه؟ إنها أحجية وليست حقيقة

صونيا: لماذا لا نقول هذه هي العظمة والعزة التي خصّ بها الله الإنسان. فالعقل يعمل من خلال مادة الدماغ وهي مادة جزئية محسوسة والعقل الذي يمارس وجوده من خلالها متصل بالكلي المجرد. وبهذا يكون الإنسان جزئي محسوس وكلي مجرد بنفس الوقت

حسام: سلوني أنا كيف يلامس المحسوس الجزئي الكلي المجرد، عندما أتعرف على صبية حسناء أبادلها الحديث وأجاذبها الطرائف، أسافر في بحر عينيها بلا سفينة ولا شراع، أرتشف رحيق شفثيها في كووس من العنبر، أتسلق هضاب أردافها التي تنوء بأثقالها، أتأمل استدارة ثدييها الناهدين بحاسة النظر واللمس والذوق والشم، عندها ينكسر جدار المحسوس وأشعر أنني أغرق في دوامة اللامحسوس، أدوخ أهيم يفارقني الوعي، يتحول جسدي الى مركب من نار يخترق فضاء وجودي، أرى كل شيء يتداخل في كل شيء، فالإثنان يصبحان واحداً، والواحد يصبح فرداً غير داخل في علم الأعداد، وهذا الفرد يغدو نقطة ضوء تتحرك فتصبح خطأ ثم يتحرك الخط

فيصبح سطحاً ثم يتحرك السطح فيصبح حجماً ثم يستدير الحجم فيصبح كرة، وتدور الكرة على نفسها لتعود مجرد نقطة ضوء في ظلمة هذا الوجود السرمدى

ماري: لا يداخني الشك لحظة واحدة بأنك مدمن مخدرات من العيار الثقيل. أنت تهلوس وتريدنا أن نحسب هذه الهلوسة شعراً، وتريدنا أن ننجذب إليك والأحرى بنا أن نهرب منك. أنا لم أعد أستهجن ما أوصى به أفلاطون من طرد الشعراء خارج المدينة النموذجية التي حاول بناءها

خديجة: لا تكوني قاسية الى هذا الحدّ فأنا أرى في كلام حسام الكثير من الصور الملونة التي تدخل البهجة الى القلب الحزين. فالخمر في كؤوس من العنبر يا سيدتي هو أجمل وصف سمعته لشفتين ناضجتين تتضحان بالرغبات الراحفة، والسفر في بحر العيون بدون سفينة أو شراع أمان فالمسافر عرضة في كل لحظة للغرق، لعمرى هذا أجمل وصف لعيون المرأة التي تزرع في شرايين الرجل لذة مقلقة وفرحاً خائفاً، ألا يشبه هذا باقة الورد التي تهدي للحبيب لتتعش آماله بالفرح والوصال وهي في نفس الوقت تكاد تخنقه بكربونها في عتمة الليل

جوزيف: الخمر في كؤوس من العنبر وذكرياتي في غرناطة وأشبيلية وقرطبة وملقار... إنها شفاه نساء الأندلس التي من ذاق طعم رضاها دخل الجنة دون أن يمر بأي مطهر. إسألوني عن الغزاة التي تخشى الأسود جفونها لأن لواحظها سهامٌ مريشة، نحول خصرها أنحل عشاقها، حور عينيها المغناج أثمل ندمائها، القوام يتثنى ليناً كشاح زنبق، وسنا الوجه يطالعك كشمس في لحظة شروقها. إسألوني عن الحسنات الأندلسيات اللواتي إذا نظرت فلست أنظر غيرهنّ، وإذا سمعت فلست أسمع إلا منهنّ، وإذا نطقت ففي صفات جمالهنّ، وإذا سكرت فمن خمره رضا بهنّ، وإذا أصبت بالعدوى من حسام ونظمت قصيدة فإني أنظم فقط في حسنهنّ

صونيا: كنت دائماً أتصور شخصية رجل الأعمال شخصية سمجة متعجرفة كثيفة مستكبرة، واليوم يفاجئنا جوزيف بشخصية رجل الأعمال الشفافة التي تذكرني بقول
!أحد الشعراء

وأهل الهوى من أحسن الناس شيمه

لطافاً وإن جار الزمان كرام

:وما رددّه حسام أمامي

عجبت لما يلقى من العشق أهله

وفيما يلاقي العاشقون عجائب

سليمان: قرأت مرة في أحد الكتب الفيثاغورية حواراً دار بين الله والعقل يقول فيه
:الله مخاطباً العقل بما معناه

سبحاني ما أعظم شأنني، وعزتي وجلالي لم أخلق أفضل منك، لقد أظهرتك من نوري صورة حية واعية منقوشاً في جوهرها صور جميع الموجودات. منك تنبثق موجودات هذا الوجود من القوة الى العقل في تدرج من الزمن، أعدك أني لن أقطع عنك فيض قوة الحياة والوعي طرفة عين كي لا تضمحل وتضمحل معك كل الموجودات. أيها العقل الحبيب يا بكر الخليقة من أطاعك فقد أطاعني ومن عصاك فقد عصاني، من أطاعك أكافئه بلذة المعرفة التي تطلب لذاتها ولا تطلب لغيرها فهي غاية الغايات وسعادة السعادات لأنها لا تنقلب الى ضدها و غيرها ينقلب، ولا يولد ضدها من أحشائها و غيرها يولد. ومن عصاك أيها العقل أعاقبه بالجهل والقلق والمعاندة والتكالب على الملذات الحسية التي تنقلب على ذواتها وتولد أضدادها من أحشائها، من عصاك أجعله أجوف فارغاً كالجراب المثقوب لا يمتلئ مهما أعطيته. وتحرك العقل مغتبطاً بما سمعه نحو خالقه ليغرق في بحر فيض نوره، فتولد من تحركه شوقاً عصف بين أجنحته فجعله يتوهج نوراً ونار.. عندها ولد الحب وغمر جميع الكائنات.. إنه شوق الفراش الى الربيع، شوق الصحارى الى ماء السماء، شوق الخيال الى الجمال المطلق، شوق الأنهار الى البحر المحيط

ماري: إذن الحب ليس شهوة جسديين يرغبان بالتفاعل، وليس رغبة كيان في الانصهار بتلذذ في أحشاء كيان آخر، وليس شبقاً يتولد من صراخ كيمياء اللحم والدم.

حسام: ألم أكن أقول لكم أنّ الحب هو شوق الجمال الجزئي المحسوس في التفتيش
عن الجمال الكلي المطلق وإعادة الإلتحام به.

صونيا: إذن الحب شيءٌ يولد في العقل ويتحرك باتجاه الله، وما نراه من شوق رجل
الى دلال امرأة وشوق امرأة الى مروءة رجل ما هو إلا ظلال شبح الحب وليس
الحب.

ماري: معرفتي بخسة في ميدان الحب ولكني على يقين أنّ الحب في هذا الشرق
العتيق هو شهوة تملك الآخر وافتراس شخصيته الحرة المستقلة. أنا أفهم الحب
تجاذباً إيجابياً بين شخصين حرين مستقلين لكل منهما بصمته الخاصة به والحب هو
عبارة عن قواسم مشتركة بين هذين الشخصين المستقلين. أما أن يصبح الحب
إستتساخاً لشخصية المحبوب من قبل الحبيب فهذا لعمرى جريمة جنائية نخبها تحت
عباءة مزركشة رومانسية.

سليمان: نعود الى العقل فالصحيح هو ما صح في العقل فإذا كان الله قد خلق الإنسان
كياناً له بصمته الخاصة به والتي تميزه عن غيره جسداً وعاطفة وعقلاً أنتجراً نحن
ونرفض هذه الحقيقة ونحاول تخريبها بإلغاء إستقلالية الآخر ومحو بصمة كيانه
الحرّ المسؤول لنحوه الى ظل بحجة أننا نحبه، أي هرطقة توازي هذه الهرطقة

خديجة: كلامكم هذا يطرح مسألة الأخلاق وعلاقتها بالعقل. فإذا لم يكن الإنسان حراً
عاقلاً كيف يمكن أن يكون أخلاقياً. هل نقول عن الحيوان الأعجم الذي تسيره قوانين
جبرية منطبعة في غريزته حيوان أخلاقي أو غير أخلاقي، حيوان عادل أو ظالم
خير أو شرير.

جوزيف: هذا شيءٌ بديهي فالإنسان هو المخلوق الوحيد الأخلاقي لأنه المخلوق
الوحيد العاقل الحرّ المسؤول.

صونيا: ولذلك تعتبر أكبر جريمة في تاريخ الوجود هو أن تحاول أي مرجعية
مصادرة عقول الناس وحرّياتهم تحت أي ذريعة من الذرائع.

حسام: إذا لم يكن الإنسان عاقلاً حراً مسؤولاً كيف يكون جميلاً؟ وهل الجمال إلا ألق العقل في العينين ونبض الحرية على الشفتين، ومسؤولية الأثداء الناهدة التي تتأطح قرونها حريير القميص في جر الآخرين الى الضلال والضياع أو الى الخلق والإبداع.

ماري: يكفي العقل شرفاً أنه لا يشتري بالمال، ويكفيه شرفاً أنه مهما كثر لا يرخص فإنه كلما كثر كان أغلى.

جوزيف: ولكن بعض الناس يفضلون الحظ على العقل فصاحب الحظ حاجته الى العقل أقل بكثير من حاجة صاحب العقل الى الحظ، كان المرحوم جدي يقول لي من زيد في عقله نقص في حظه فما جعل الله لأحد عقلاً وافراً إلا احتسب عليه من رزقه حتى قال الشاعر

وما لبّ اللبيب لغير حظ بأغنى في المعيشة من فتيل

حسام: وإني لمؤكد قول جدك بقول الشاعر أبي العلاء المعري

تعطي التيوس قناطيراً مقنطرة من اللجين ونعلي ما لها قدم

وقول شاعر آخر

وخصلة ليس فيها من يخالفني الرزق والجهل مقرونان في قرن

ماري: أحب أن أعود الى كلام سليمان. فإذا كان الله قد خاطب العقل وقال له من أطاعك فقد أطاعني فمعنى ذلك أنه لا سبيل الى رحمة الله ومعرفته إلا عن طريق العقل. بل لنحدد كلامنا فنقول أنّ الوسيلة الوحيدة للتواصل بين الإنسان والله هي العقل. وهذا يهدم كل ما فعله الصوفيون والزهاد والعباد الذين حاولوا أن يتواصلوا مع الله عبر حرمان أجسادهم من بسيط المأكل والمشرب والنوم واللذة الجنسية وما أشبه ذلك.

سليمان: نحن كلنا متفقون أنّ العقل لا يحيط كلياً بمعرفة الله، ولذلك اعتبرنا الله منزهاً عن الأسماء والصفات لا يحلّ في زمان فتخلو منه بقية الأزمنة ولا في مكان فتخلو منه بقية الأمكنة. بل الكون بجميع أجزائه هو الموجود. ولكننا متفقون أيضاً أننا نعرف الله على قدر حبنا له وانجذابنا إليه واحترامنا لقوانينه البديهية التي نقشها في عقولنا الغريزية منذ لحظة الإبداع. وهذه القوانين البديهية هي جوهر العقل، وما قوانين الطبيعة إلا نسخة ثانية تؤكد حقائقها حقائق النسخة الأولى

.خديجة: أفهم من كلامك أنّ قوانين الطبيعة لا يمكن أن تتناقض مع قوانين العقل.

جوزيف: وأنا أفهم من كلامك أنك تريد أن تقول أنه يوجد عقلٌ كلي يحيط بكل موجودات هذا الوجود فينظمها بناءً على قوانين لا تخطئ موجودة بشكل جبري في الموجودات غير العاقلة وبشكل إختياري في الموجود العاقل الإنسان. وأنّ الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يستطيع أن يرفض ويخالف أو يقبل فيطيع

.ماري: إذن كان جان بول سارتر على حقّ عندما قال أنا أرفض إذن أنا موجود

صونيا: أنا شخصياً لا أفهم الحرية إلا إنسجاماً وتناغماً مع قوانين الطبيعة وقوانين العقل. جسدنا هو نتاج الطبيعة، سعادته وصحته في الإنسجام مع قوانين الطبيعة وتعاسته ومرضه في المخالفة. وها نحن اليوم نخالف والنتيجة ظاهرة أمامنا... قلق إحباط يأس إنتحار مخدرات سمّنة أمراض مستعصية. أما نفوسنا العاقلة فهي قبسٌ من نور الله.. سعادتها في احترام قوة الحياة فيها والإتحاد بالوعي الكلي حيث الحقائق كليات مجردة نسحبها على الجزئيات المحسوسة فنعرف حقائق الجزئيات. أنا هنا وبكل تواضع أردد ما كان يقوله لنا سليمان

حسام: مشكلة العقل أنه يعيش صراعاً دائماً مع القلب. كلما برعم إحساس أو أينعت ثمرة هوى، سلّ العقل سيف الحقائق البتار ليقطع دابر ذلك البرعم ويطفئ توهج تلك الثمرة، نحن نعرف أنه يملك الحقيقة، ولكنه للأسف يملك مع الحقيقة الكثير من السماجة. فهو ثقيل الظل في لعبة دور القيادة، بل هو مستبدٌ عادل وأنا أكره الإستبداد مهما توشح بالعدالة والحقيقة

ماري: هذا لأنك تسير بوحى غرائذك وتساغر في بحر أحلامك ولا دليل لك إلا أحاسيسك المحمومة التي لن توصلك إلا الى التهلكة. ولكن مصيبتنا معكم معشر الشعراء أنكم تزينون الفواشش لعامة الناس حتى يصبح أصحاب الأهواء مثلهم الأعلى، فهم يتباهون برذائلهم ويعرضون للناس شذوذاتهم على أساس أنها ذروة الخلق والإبداع.

جوزيف: هذه ذروة القسوة بل ذروة السادية، حنانيك يا صديقتنا ماري وكأنه يوجد ثأرٌ بينك وبين فحولة الرجال، ألا تعلمين أنّ الفحولة في هذا العصر فضيلة لكثرة ما نراه من رجال تأنثوا أو تخنثوا أو أصبحوا يتباهون بتخنثهم وتأنثهم كما تتباهى بعض النساء في ترجلها حتى كادت الحدود تلغى بين الجنسين. ألم يقل سليمان أنّ العقل هو في معرفة حدود الأشياء والوقوف عندها.

خديجة: ماري كانت قاسية ولكنك يا صديقنا جوزيف جذبت الكلام الى غير مراميه وهذا تخابث منك بل هو ذروة الخبث. فكل ما أرادت ماري التعبير عنه هو أنه لا يليق بالإنسان أن يسير وراء غرائزه ممجداً إياها وكأنها القائد الملهم. فالشعراء من هذه الناحية تقودهم أو هامهم وظنونهم وخيالاتهم ونزواتهم وليس عقولهم إلا في ما ندر كما نرى عند المتنبي والمعري والنادر لا يقاس عليه.

صونيا: أظنكم جميعاً إبتعدتم عن مقاصد حسام. أنا أعرف الشعراء جيداً، وأعرف أنهم كالنساء المدللات المغناجات يحتجن الى الكثير من الرقة واللطافة والبراءة والترفق والمسامحة لكي يستطعن إظهار ما يختزنه من غنج ودلال وفتنة وإغراء، من جمال كلي يتعانق مع الحقائق الكلية. كان صديقنا حسام يقصد أنّ الإنسان ليس عقلاً خالصاً ويجب ألا يكون عقلاً خالصاً وإلا تجمد وقاراً وتصنم فضيلة وانعزل فردانية، وهنا تأتي الأهواء لتلون الصورة الإنسانية وتضيء عليها بألوان قوس قزحية ثم يأتي الخيال ليمزج الأوهام بالحقائق، والفضائل بالرذائل في كوكتيل شفاف ناعم تستمرئه الأذواق ويطيب لعشاق السهر والسمر والمنادمة. هذا هو الإنسان فلا تحملوه أثقالاً لم يخلق لها.

حسام: حسناوات تهاجمني وحسناوات تدافع عني وهذا ما يذكرني بمتصوف وصل في إحدى شطحاته الى مرحلة أن المحبوب والمحب والحب أصبحوا عنده ثلاثة أقانيم في أقنوم واحد. دعونا نسلك نفس المسلك ونتوصل الى نفس النتيجة. أنا نقطة بيكار الدائرة وأنتن تدرن حولي في حركة وجد صوفي ينتهي بنشوة النرفانا، وما أدراك ما هي نرفانا الشعر وأصحابه والعشق وأربابه

سليمان: مبدأ الصراع بين العقل والطبع واقع نعيشه كل لحظة في سلوكياتنا اليومية. فالإنسان بطبعه مستبد يرغب بالسيطرة على الآخرين وتحويلهم الى ظلّ له، وهو بطبعه عدواني فهو يريد أن ينتزع كل جميل ونفيس من أيدي الآخرين ويتملكه لنفسه، وهنا يأتي دور العقل لهداية الطبع وترويضه بالحسنى ليقلم مخالبا عدوانيته ومغالبتها واستبداده، هذا الأمر يحتاج روية ودرية وتبصر ومخططات بعيدة المدى على صعيد الجماعة وليس فقط على صعيد الأفراد، بحاجة الى مؤسسات مجتمع مدني علماني ديموقراطي تدرّب الإنسان منذ صغره على احترام حقوق الآخرين، على العمل كفريق وليس كفرد، والفرح كجماعة وليس كفرد، إنه محاولة انتزاع الإنسان من فردانيته ليغدو حلقة في سلسلة المجتمع يفعل وينفعل يؤثر ويتأثر. هذا برأيي عمل العقل الأساسي خلق توازن بين الشخصية الفردية والشخصية الإجتماعية والشخصية الكونية في طبيعة الإنسان. وهذا ما لم تستطع حتى اليوم مؤسسات المجتمعات الرأسمالية أو الإشتراكية تحقيقه إلا بنزر يسير رغم وجود تجارب ناجحة أخذت من كل شيء إيجابياته وتركت السلبيات لأهلها فمزجت وصهرت وكان لها أن تقترب من مبدأ أن العقل هاد ومرشد للطبع والإحساس والغريزة وليس قائداً ديكتاتوراً يقمع أو ضعيفاً متراحياً يتبع

صونيا: هذا يحصل في عالم المثل وليس في عالم الواقع

سليمان: ولكن المثل في داخل ذواتنا وليس في خارجها

حسام: إسمعوا نصيحتي وتأنسوا بالشعر، إنه رحيق العقل وألق الإحساس، وشبق الغريزة، وجموح الطبع. كوكتيل لذيد أمزجه بكثير من الخمر ولبيل يسيل. موسيقى وبقد مياس يتلوى وخذ ما يدهش العالم

خديجة: فليشرب سليمان كأس العقل صرفاً ودعونا نحن البقية نشرب من ذلك الكوكتيل هنيئاً ومريئاً

جوزيف: ودعوا القدود تتلوى وهي تفيض غنجاً ودلالاً وفتنة، والعيون الحوراء ترشقنا بسهامها خدرأ وهيماناً وأحلاماً ناعسة، والأثداء الناهدة تفجر الفضاء حولنا براكين رغبات وزلازل، والليل يسيل موسيقى ومع الموسيقى صور خيالات آتية من كوكب آخر

ماري: أنا سأشرب كأس العقل ممزوجاً بكأس علم المحسوسات

صونيا: إشربوا وقرروا عيناً فما نحن في النهاية إلا مخلوقات عيونها تحرق في قرص الشمس وأقدامها تغوص في الوحول وأذرعها ممدودة لمعانقة المطلق

الجميع: العيون تحرق في قرص شمس العقل والأرجل غائصة في وحول الشهوات والرغبات والأذرع ممدودة لمعانقة المطلق الإلهي

كمال يوسف سري الدين